آيات في الفن

الشمائل

أو السلاحف البرية

لاسماعيل مظهر

— ١ —

لعلَّ القارىء يتساءل : أيُّ شيء من جمال الخلق في تلك الصَّدَفات المتحركة التي أن مشت دَعْدَجَتْ ، وان سكنت سكنات وقعت منكشة الغطاء السرّ المطوي في صدر صحيح بالكلام ؟ ولكن جمال الخَلْق شيء وجمال المعنى شيء آخر . فاذا أردت أن تعرف سرًّا من أسرار الآيات البينات في خلق الحيوان فَفَرِّق إذن بين جمال الخلق وجمال المعنى . بل انهُ ينبغي لك أن تنظر في جمال المعنى قبل جمال الخلق . فانك قلما تقع في الحيوان على صور فيها من جمال الخلق ما هو أبلغ من جمال المعنى ، كما أن المهندس الأعظم قد انصرفت قدرته الى بث المعاني في تضاعيف المخلوقات حتى لقد طغت على الخلق الظاهر . فاذا نظرت في مخلوق ما وأردت أن تستبريه ، فانظر في المعنى الكامن فيه ، وهنالك تتبين الآية ، والمقصود هنا بالشمائل (جمع شَمْأل) وهي السلاحف في المعنى العام . والشمائل أعضاء في طبقة عظيمة من طبقات الحيوان تعرف بالزواحف ومنها الحيات والسَّحالي والتماسيح والحربوت والوَرَل والضَّفادع والسَّلامندل وغير ذلك . فانظر كيف تشبع في جميع هذه الصور المتفرقة صفات مشتركة فَنَّنها بارىء الاكوان تفنيناً عن صورة أوّلية مثالية ، فجعل منها السَّام والوديع والمكّار والدَّارج والمفترس والعاشب والمتكبّر والسَّافر والأملس والكث والبادن والنحيل وذا الناب وذا المخلب ، وعاشي البر وعاشي الماء

والسَّلَحْفائيات — Chelonia قبيلة عظيمة من قبائل الزواحف : تمتاز

---

(١) طلب الينا فريق من القراء الملتفين حول مجلة الفتح معرفة اسم كاتب هذه المقالات الطبيعية الممتعة التي تقرؤنها في قلب أدبي فآثرنا على رغبتهم وبدأنا بنشر اسم كاتبها المحقق وهو الاستاذ اسماعيل مظهر

صفاتها بصور ثلاثة : الأولى الفيالم Tortoises : وهي برية صرفة ، والثانية اللجأ Turtles : وهي بحرية صرفة ، والثالثة الطرابين[1] Terrapins : وهي برية أو بحرية . وسنفرد لكل من هذه الصور بحثاً خاصاً نلم فيه بما لا يكثر من جمال المعنى الذي بثته الطبيعة في اضاعيف هذه الصدفات الصلبة ، المنطوية على أحياء فيها من آيات الخلق البيّنة ، ما تقر القدرة البشرية بالعجز الكامل عن إدراك أتقه وأتمه

لم يفت أوائلنا الكلام في هذه المخلوقات . ففي الدميري (٢ : ٢٤) السلحفاة البرية واحدة السلاحف ، قال أبو عبيدة : وحكى الرماني سُلَحْفِيَة ، وهي بالهاء عند الكافة ، وعند ابن عبدوس السُّلَحْفَا بغيرها ، وذكرها يقال له الفيل . وذكر الدميري السلحفاة البحرية (٢ : ٢٥) فقال هي اللجأة . وذكر اللجأ : فقال نوع من السلاحف يعيش في البر والبحر (٢ : ٣١٦)

أما اختيارنا للفظ الفيل وجعله عنواناً لهذا البحث فحبّا منا في تخصيص اللفظ للمعنى العلمي . ذلك بأننا اذا قلنا السلحفائيات فصدنا : Chelonia : وهو اسم القبيلة وهذه تحتوي على الطبقات الأخرى : الفيالم واللجأ والطرابين (Tortoises, Turtles, and Terrapins) . أضف الى ذلك أن اسم الجنس ينبغي أن يدل عليه مذكر ، والسلحفاة مذكرها الفيل ، وهو أحق بأن يكون اسم جنس . ومن أحق بالتقديم من خصته الشريعة بمثل حظ الانثيين ؟

لو قال لك قائل إن من الحيوان ما خرج هيكله عن باطنه ، وانطوى باطنه في داخل هيكله ، لبدى لك الكلام في صورة يعد على المشاهدة القريبة أن تؤثر في عقلك بحيث يسلم بصحته . ولكن اذا فرجت ملكه وقيل لك انظر هذا الفيل ! أليست ترى أن هيكله قد ركب جسمه فبرز ، وأن جسمه قد انطوى في داخل هيكله تخفي ، كأنما الطبيعة تريد أن تقول لك بفصاحتها الصامتة : كيف ترى ؟ أليس لي القدرة على جعل الآية ونقيضها آيتين ؟ فما يكون من عقلك الا أن يسلم بأن التمائض أصبحت بديهيات

إذن فهذه الصفائح الغريبة التي تراها مترا كبة على ظهر الفيل ليست سوى هيكله الظاهر وهو يتألف من صدفة عليا يقال لها في لغتنا « الدَّرَقة » — Carapace ، وقد تسمى أيضاً الصفيحة أو الصدفة الظهرية أو الترس الظهري ، ومن صدفة سفلى تسمى « الصُّدْرة » Plastron وقد تسمى أيضاً الصفيحة الصدرية أو الترس الجوفي أو البطني . والقاعدة المطردة في خلق الفيل

---

(١) Terrapin : Formerly also terpin, tervapene, turpin : supposed to be of Amer. Ind. origin. Cent. Dict. p. 6246, vol. VIII.

يذكر معجم ستفنسون ان الكلمة امريكية هندية صرفة : الطرين بفتح فسكون والجمع طراين ، لاسم الذي يعرف به الحيوان في مرابيه

أن الذيل والصُّدْرة يتحدان من لدن الخابين بصفائح عظمية ، وفي بعض الاحيان يتصلان برباط من الانسجة الضامة (Hypomeron) ، وفي معدم هذه الصفوف وتؤخرها منفذان يجر الحيوان من خلالهما اجزاءه الظاهرة الى الداخل فتختفي اختفاء كليًا أو جزئيًا . وهنالك تنبت الرأس والاطراف والذنب ، فلا يبقى من ذلك الزاحف غير الصدفة الشوهاء التي لا تقدر على شيء الا أن تدرأ عن الحيوان ما تدرأ من عاصف الاحداث

أما الذيل ، ذلك الغطاء الغربي ، فيتألف من خمسة تروس هيكلية [1] ، على كل من جانبيها أربعة تروس ضامة [2] وقد تكون خمسة . وأسفل هذه تكون التروس الحفّافة [3] ، ويسمى الامامي منها الترس القفاري [4] كما يسمى المؤخري منها ، وقد يكون مفرداً أو مزدوجاً ، الترس الذنبي [5] أما التروس الحفّافة الوسطية [6] وهي التي تقع بين الحفّافة الامامية والحفّافة المؤخرية ، فتختلف في العدد باختلاف الاجناس . ذلك في حين أن الصُّدْرة ، أو الصدفة السُّفلى ، تكون مُهَيَّأة بعدد غير ثابت من الشُّرُوس . وهذه ، مع تروس الذيل ، لها أثر رئيسي في تصنيف صور الثعابين المختلفة في علم المواليد

اذا انحدرنا رجعاً الى الازمان الاولى ، الى الخطوات التطورية التي فتقت فيها الطبيعة بعض صور الحيوان من بعض ، رأينا أن الثعابين كان لها غطاء ، ولكن من أدم ولحم يتطير فيه أكثر من العظام . وفي مدارج التطور ازدادت تلك الأكُرُ حجماً . ثم اتحدت فصارت غطاء متصل الأجزاء . وهو ما على هون تضامرت العضلات التي كانت تحت تلك الأكر ، حتى استقر الذَّيْل واتصل بالسَّنابين وهي تلك النواشز العظمية التي تبرز نحو الظهر من العمود الفقاري ثم انضمرت السنابين دورها شيئاً بعد شيء ، حتى زالت تماماً ، وهنالك استقر الذيل فوق الضلوع مباشرة ، ثم تداخلت الضلوع في الصُّدفة تدرجاً وحالاً بعد حال ، حتى بلغ من أمرها في الثعابين الحديثة انك لا تستبين منها الا أثراً بعد عين ، كأطرافها أو رءوس الشراسيف [7] منها وعمر الاحقاب اندمج القص أي عظم الصدر في الصدفة السفلى ، وهي التي سميناها الصَّدرة فلم يبق في السلحفاتيات العائمة وهي الثعابين والنجاً والطرابين من العظام غير الناوح الكتفي والنَّرْمَى [8] اي عظم الورك . وقد يبرز هذان العظمان من الصدفة في الافراد غير البالغة ، ولا يختفيان الا بعد أن تبلغ الصدفة كمال نمائها ببلوغ الحيوان

---

(1) Vertebral Shields (2) Costal Shields (3) Marginal Shields
(4) Nuchal Shields (5) Caudal Shield (6) Intermediate Marginal Shield

(٧) الشراسيف (بضم فسكون فضما) : الضروف معلق بكل ضلع أو معظمها وهو الطرف المشرف على البطن (القاموس) . (٨) النرمى : وصلة ما بين العجز والورك (القاموس) عن الدكتور شرف

ولكن لكل قاعدة شواذ . فان من السلحفائيات صورة لم يجر عليها ذلك التطور الذي وصفنا . فهي بذلك عنوان على الماضي وأثر من آثاره تدل عليه . وقد يسمى هذا الزاحف الأسجأ الأدمي[1] فان ذيله يتألف من عدد عظيم من الأقراص العظمية المترابطة ، من فوقها بشرة ادمية أي جلدية ، قد تبلغ نصف بوصة سُمْكاً . كذلك نجد لهذا الحيوان طبقة من العضل تفصل بين الثروس وعظم الفقار والضلوع ، فتصير هذه العظام طليقة ، فلا تتصل بالذيل اتصالاً ما

ولا شك في أن ذلك الغطاء القرني الصلب الذي تدرع به الغيالم ، درقة قوية يحتمي بها الحيوان من أعدائه . ولقد تعرف أن بعض الغيالم في قدرته أن ينكمش في داخل صدفته فيغيب فيها الرأس والأطراف والذنب . ولكن هنالك من آيات الخلق في هذا الحيوان ما هو أبلغ من هذا . فان من الغيالم ما يستطيع ان يغلق الصدفة على نفسه بعد أن ينسحب الى داخلها ، فيصير الحيوان أشبه بكرة . ذلك بأن الذَّبل (وفي بعض الأحيان تكون الصُّدَّرة ايضاً) مهأ بمفصَّلات (Hinges) مستعرضة ، تحكم سدَّ الصدفة على الحيوان ، فكأن الصدفة حصن منيع

***

مما خصت به الطبيعة الغيالم : قوة الأطراف . ولكي تكون هذه الأطراف ملائمة لحياتها ، سوَّتها الطبيعة على صورة أكرية ، وهيأتها بأظافر قوية صلبة . ذلك على العكس من اللجأ والطرَّاين ، فان حياتها المائية لا تجعلها في حاجة إلى الأظافر وتأكُّر الاطراف . لهذا عدلت الطبيعة عن ذلك وهيأتها بأطراف أنحل من اطراف الغيالم ، وبتَّرت ما بين الاصابع فوصلت بينها بغشاء يساعدها على السبح . فانظر كيف تهيىء الطبيعة بين الحيوان والبيئة ، كأن للطبيعة عيناً حكيمة تنظر بها ، وعقلاً مدبِّراً يضع الاشياء في مواضعها ، فلا تعبُّ ولا إفراط

وفي الغيالم قدر عظيم من القوة الحيوية . فضلاً عن انها تستطيع أن تظل بغير طعام عدة اشهر من غير ان يظهر عليها أثر حيوي ما ، فالمعروف انها تقدر على ان تمشي مسافات كبيرة بعد أن تقطع رؤوسها وتُفصَل عن اجسامها ، أو بعد أن تنزع أدمغتها[2] من جماجمها . والغيالم من المعمرات . فقد قيل ان غيالماً كان في حديقة « بشوب » بمدينة « بترو » ، عاش أكثر من عشرين ومائتي سنة . وحصل « لود » ، رئيس اساقفة « لامبث » على غيالم سنة ١٦٢٥ ، فمات في سنة ١٧٥٣ وبالرغم من ان هذا الغيالم قد ظل حيث تركه « لود » ثاني وعشرين ومائة سنة ، فانه لم يمت جنف الله ، بل مات بإهمال بستاني عهد اليه في أمر القيام عليه . وبالرغم من ان الغيالم تعمِّر الى أرذل الاعمار ، فمن العجب العجاب انها تموت بختنفه إذا ما ارغمت على ان تظل أفواهها

(١) Leathery Turtle (٢) الدماغ عليا وهو يتألف من المخ والمخيخ والنخاع
Cerebrum, Cerebellum, and Procerebrum

مفتوحة زمناً ما ، أو سُدَّ منها المنخران بقطعة من قطن مثلاً . ذلك بأن الزواحف تتنفس بطريقة تختلف كل الاختلاف عن الطريقة التي تتنفس بها الحيوانات المتثدية رئاتها ، ما عدا الضفادع والسَّرَع (Frogs) والسلاحف . فهي لا تستطيع أن تملأ رئاتها بالهواء ثم تفرغها بأن تمدد الصدر ثم تقلصه . ذلك بأن ليس لها ضلوع متحركة ، وأحكام الصدفة على الصدر يمنعها من حركة التنفس المعروفة . فإذا أراد الغيلم أن يضخم رئته بالهواء سدَّ فكيه ، ويزيد اتساع فجوة الفم بأن يردَّ اللسان الى أسفل فيحدث بذلك خواء يتحدر اليها الهواء من المنخرين ، ثم تمتد الأسنة (وهي طرف اللسان) لتضغط فتحتي مجرى الأنف من الداخل فتسدَّهما ، فيزاق ملء الفم هواء من خلال قصبة الهواء الى الرئتين . وبعبارة أخرى نقول ان الهواء يبتلع ابتلاعاً بل يجرع اجتراعاً ، لا أن يؤخذ شهيقاً ورد زفيراً . ومما هو واضح أن طريقة التنفس على ما وصفنا لا يمكن ان تتم إذا ما ظل الفم مفتوراً

وليس للغيالم أسنان . بل إن أفكاكها قد هيئت بحافة قرنية تصلح للقضم . ويمكن التفريق بين السلاحف البرية والبحرية بان صدفة الاولى تكون أشبه بقباء مرتفع . أما صدفة الثانية فتطامئة . والغيالم جميعها من العواشب ، ماعدا نوع واحد يعرف باسم « الغيلم الشُّدُدي » (Hook Turtle) فانه يختلف في غذائه عن بقيتها بعض الشيء . فقد يأكل الى جانب الاعشاب : أنواعاً من الديدان والحلزون والضفادع . والانواع الضخام من الغيالم في مستطاعها أن تأكل بعض الحضر الكبيرة كالكرنب . ولكن البُثيلات [1] منها تتغذى بالحشائش والحس ، وغير ذلك من الحضر الدنية

***

أن أشهر أنواع الغيالم هو النوع المعروف باسم الغيلم الاغريقي (Greek Tortoise) وهو يستوطن جزيرة كورسيكا وجزيرة سردينيا وايطاليا وبلاد البلقان وسوريا . وقد يبلغ طول الفرد منه خمس بوصات ونصف بوصة . وقد يتفق أن الكثيرين قد تذوقوا لحم الحجا (السلاحف البحرية) . ولكن لابد كر أحدنا أنهُ عرف أن الغيلم (السلاحف البرية) مما يؤكل . ذلك في حين ان الواقع أن لحم الغيلم الاغريقي ، وبخاصة الدماغ ، مما يؤكل في انحاء صقلية وايطاليا بعد نقعه في الخلّ ، وان هذا الغذاء مما يشتهيه الكثيرون من الناس هناك ، وكثيراً ما تعرض هذه الغيالم للبيع في الأسواق كما تباع اللحوم والطيور والحضر

(١) البثيل : الصغير